الفصل الثامن
كيف نشأ الإنسان[1]

إنَّ ذلك لا يزال موضع شكٍّ عند داروين وأمثاله، ولكنَّ نظرتهم أنَّ أوالى البشر لم يكونوا على صورة الإنسان الحالى بل كانوا أكثر مشابهة للقردة العليا كالغوريلا والشمبانزى والأرطان منهم إلى الإنسان الحالي، ومن أجل انهم أول ما عاشوا فى الكهوف والمغاور وقد اغتذوا بالجذور والدَّرنات والجوز، واتخذوا من أدوات الدّفاع عن النّفس عصياً وأحجاراً صنعوها خبط عشواء. غير أنهم اصطنعوا بعد ذلك أدوات من الصوان جلبوها بالنحت - لتتفق مع أغراضهم - وتركوها غير مصقولة.

واستمر الإنسان يستعمل تلك الأدوات الحجرية الغشيمة أزماناً طويلة، ولكن بمرور الزَّمن اكتسب قدرة على تحسين الصناعة، فأخذت أدواته ترتقى متدرجة مع تدرجه فى سلم الارتقاء والتطور العضوى والذهني، وفى زمن ما عرف كيف يستعمل النّار أول ما رأى ناراً مشتعلة بسبب انقضاض صاعقة على الهشيم الجاف فاشتعلت ومضى محتفظاً بها يزكيها كلما كادت تخبو، ولكنه اهتدى بالصدفة بعد ذلك إلى الطَّريقة التى يوَلِّد بها النّار، وهى نفس الطَّريقة التى لا زال البدائيون يستعملونها إلى يومنا هذا. وقد كان لاستطاعته توليد النار أثر تطورى انقلابى فى حياة الإنسان، حتى أنه قد ألفت فيها الكثير من الحكايات والأساطير.

لما استطاع الإنسان أن يحسّن من أدواته خرج للصّيد وطبخ لحم الحيوان بعد أن كان مقتصراً على الجذور والدّرنات والجوز، واتخذ من جلد الحيوان كساءاً. وكان إنسان الكهوف فناناً بطبعه فَخَلَّفَ آثاره الفنيّة منقوشةً على العاج والعظام والأحجار وغيرها، أو صَوَّرَها خطوطاً وتلويناً

---

(1) المرجع. صفحة (45 - 47) بتصرف ومصادر أخرى.

على جوانب الكهوف التى عاش فيها.

بعد ستمائة ألف من السنين خطا الإنسان خطوة أخرى نحو التّقدم والارتقاء. على أنّ تقدير الأطوار النُشوئية التى تعاقبت على الإنسان بالسنين هو أمر ظنى تقريبى صرف، وكلما تقدمت البحوث العلمية وكشوفات علماء الآثار والأحافير ردت الإنسان إلى عهد أبعد وأعرق موغل فى القِدَم.

كذلك تدرجت لديه القُدرَة على الكلام فى مراحل لاحقة من التّطور استطاع أن ينقل إلى نسله عاداته الكلامية. ولما بلغ تلك الدَّرَجَةَ من القدرة على النُطق أصبح وجوده أثبت وعيشه أيسر مما كان فى العهود السّابقة، غير أنّ أدواته كانت مصنوعة من الصّوان وغيره من الحجارة الصّلبة، بعد أن اتخذت صورة جديدة فصارت حديدة السنان ملساء الأسطح بعد أن صقلها وهذّبها واهتم بحسن مظهرها، واخترع القوس والسهام والصنانير والكلاليب التى اتخذها من قرون الأيائل. ونسج الملابس وصنع الفخار وزرع بعض أصناف الحنطة، كذلك فقد آلَفَ الكلب فكان لايلافه أثر بعيد فى حياته وأسلوبها إذ اصبح له صديقاً ورفيقاً استعان به على الصيد ورَدِ عادية الذئاب والوحوش المهاجمة والتى كانت أعدى وألد وأضرى أعدائه فى حياته البدائية.

وبالتأكيد أن الإنسان قد آلف أنواعاً من الذئاب والوحوش فى بداية الأمر انحدرت منها بطريق التطور جميع سلالات الكلاب التى نعرفها اليوم، فذئب جريح فاقد الحيلة والقدرة قد يرتد بالتأليف والتعليم والتدريب أليفاً بعد أن يعنى به ويتعهد ويساس من قبل إنسان بدائى يضمد جراحه ويعوله ويتعهده فيصبح النواة الأولى فى تأليف أترابه من بنى جلدته وعقيب ذلك اهتدى الإنسان إلى طريقة إيلاف الحصان والحمار ومن ثمَّ الجمال والقطط، فأضاف إلى قدراته فى المسيرة التربوية قدرات أخرى

ساعدته فى أساليب الحياة والتغلب على الصعاب.

ويؤكد العلماء أنَّ الإنسان منذ أن عمَّرَ هذه الأرض قد ترك آثاره المتحجرة فى الطبقات الجيولوجية فلقد عثر العلماء على جماجم مطمورة فى رواسب الكهوف والمغاور، وعلى عظام أخرى من الهيكل العظمى فى رواسب الأنهار القديمة وفى المحاجر، ومن هذه الصور الأثرية استطاعوا أن يؤلفوا فكرة عن الصور التى لابست الإنسان فى مراحل تطوره فى تلك العصور الغابرة.

بجوار تلك العظام التى خلفها الإنسان من هيكله العظمى - وهى قلية لأنها سريعة العطب والانحلال - فقد خَلَفَ الإنسان أدواته التى استعملها كالحراب والمدى والمطارق والإبر والكلاليب والسهام وغيرها... وهى فى الأكثر مصنوعة من الصوان أو غيره من المواد الصلبة، وقد مضى على الإنسان زمن طويل وهو يستعمل تلك الآلات الحجرية قبل أن يهتدى إلى المعادن، ومن دراسة تلك الأدوات فقد بنى علماء التطور نظرياتهم المختلفة حول التّطور والعصور البشرية ونمط حياة الإنسان ونهضته ورقيه والأزمان والفترات التى مَرَّ بها.

كان هذا هو ملخص لما ورد فى كاتب داروين " أَصل الأنواع " فى موضوع نشوء الإنسان. وهو ما يجمع عليه كافة التطوريين بالتركيز على الربط بين الأدوات المستعملة وبين نهضة الإنسان ورقيه وحضارته وأسلوب تفكيره. المطابق للفكرة الأساسية التى تبنتها الشيوعية بأن المادة هى أصل الموجودات وأن التّطور المادى تبعاً لوسائل الإنتاج هو المحرك الفعلى والوحيد للمجتمع وعلاقاته جميعاً، واعتبار فكر الإنسان ووجة نظره نابعة وموجهة من الأدوات التى يستعملها، وتدوينهم تاريخ نشأته وحضارته بالمصدر الوحيد المعتمد لديهم لذلك وهو ما يكتشفونه فى المغاور والكهوف من أدوات استعملها فى الحقبات التاريخية

المنصرمة.